الفصل الأول

سياسات الخوف

الخوف أقوى أعداء العقل، والخوف والعقل جوهريّان لحياة الإنسان، لكن العلاقة بينهما غير متوازنة. فقد يبدد العقل الخوف أحيانًا، لكن الخوف يغلق العقل دومًا. وكما كتب إدموند بيرك في إنكلترة قبل عشرين عامًا من الثورة الأمريكية: «ليس هناك شعور يسلب العقل كل قوى التصرف والتفكير بصورة مؤثرة مثل الخوف».

كان مؤسسونا يقدّرون إلى حد بعيد، التهديد الذي يفرضه الخوف على العقل. وقد عرفوا أن الخوف -تحت ظروف مناسبة- يمكن أن يثير إغراء التنازل عن الحرية مقابل وعد خطابي أجوف بالقوة والأمن. وكان ما يخشونه أنه عندما يحل الخوف محل العقل تكون النتيجة دومًا بغضًا وخلافًا يفتقران إلى العقلانية والمنطق. وكما كتب جيتس لويس دي. برانديس أخيرًا: «كان الناس يخافون الساحرات؛ فيحرقون النساء».

كان فهم هذه العلاقة غير المتكافئة بين الخوف والعقل أمرًا جوهريًا لتخطيط الحكم الذاتي الأمريكي.

فقد رفض مؤسسونا الديمقراطية المباشرة، خشية أن يطغى الخوف على التفكير التأملي. لكنهم اعتمدوا بشدة على قدرة «جماعة

obeikandl.com

المواطنين الواعية» على التفكير معًا، بأساليب من شأنها تقليص التأثير المدمر للمخاوف الوهمية المتضخمة المفرطة. كتب توماس باين في كتيبه الأسطوري «الذوق العام» محذرًا -تحديدًا- من أنه لم يكن على مؤسسينا المغامرة بالانتظار حتى يستولي بعض الخوف على خيال الشعب، مما قد يشوش عمليات التفكير لديه: «عندما يفكر المرء بعمق في حياة الإنسان المحفوفة بالمخاطر، سيقتنع بأنه بلا شك من الأحكم والأسلم أن نصوغ دستورًا خاصًا بنا بأسلوب متأنٍ هادئ، قبل أن يخرج الأمر من أيدينا».

تنجح الأمم في تحديد شخصيتها الجوهرية بتحديها للمجهول، والتغلب على الخوف أو قد تخفق، ويتوقف ذلك على كفاءة زعاماتها. فإذا استغل الزعماء مخاوف الشعب كي يسوقوا الناس في اتجاهات ربما لا يختارونها في ظروف أخرى، فسرعان ما يتحول الخوف نفسه إلى قوة ذاتية التولد منطلقة تستنزف الإرادة الوطنية، وتضعف الشخصية الوطنية، وتصرف الانتباه عن التهديدات الحقيقية التي تستحق الخوف الصحي المناسب، وتثير الارتباك فيما يخص الخيارات الأساسية التي يجب على كل أمة تحديدها باستمرار لمستقبلها.

إن الزعامة تعني الإيحاء لنا بالتغلب على مخاوفنا، أما (الديماجوجية) الغوغائية فتعني استغلال مخاوفنا لتحقيق مكاسب سياسية، وهناك فرق شاسع بين الاثنتين.

كان الخوف والقلق دومًا جزءًا من الحياة وسيظلان كذلك. فالخوف موجود بصفة دائمة وعامة في كل مجتمع بشري، وهو جزء طبيعي في

opeikandi.com

الحالة الإنسانية، وكان دومًا عدوًا للعقل. وقد كتب الفيلسوف ومعلم فن الخطابة الروماني لاكتانتيوس: «الخوف والحكمة لا يجتمعان في مكان واحد».

كنا نعرّف التقدم دومًا بنجاحنا في التغلب على مخاوفنا. فكريستوفر كولومبس وميريوذر لويس ووليم كلارك وسوزان بي. أنطوني ونيل أرمسترونج جميعًا وجدوا النجاح بتحديهم للمجهول، وتجاوز مخاوفهم بالشجاعة وبحسن التقدير الذي ساعدهم على التمييز بين مخاوف مشروعة؛ فسيطروا عليها، ومخاوف وهمية محرّفة لم تلههم عن أهدافهم.

وقد واجه مؤسسو بلادنا تهديدات رهيبة، فلو أنهم أخفقوا في مساعيهم، لشنقوا بوصفهم خونة. فقد تعرّض وجود دولتنا نفسه للخطر، لكنهم -برغم وطأة هذه المخاطر- صمموا على إقرار الحريات التي تحولت إلى «إعلان الحقوق». فهل يتعرض أعضاء الكونجرس اليوم لأخطار أكبر، من تلك التي تعرض لها أجدادهم، حينما كان الجيش الإنكليزي يزحف إلى مبنى الكونجرس الأمريكي (الكابيتول).

هل الأخطار التي نواجهها الآن أشد مما أدت بفرانكلين ديلانو روزفلت إلى تذكيرنا بعبارته الشهيرة، وهي أن الشيء الوحيد الذي ينبغي الخوف منه هو الخوف ذاته؟ هل تتعرض أمريكة حاليًا لخطر أكبر مما تعرضت له، حين واجهنا الفاشية المنتشرة والمتنامية في أرجاء العالم، وعندما حارب آباؤنا وانتصروا في حرب عالمية على جبهتين في آن واحد؟

هل العالم أشد خطورة مما كان حين واجهنا عدوًا عقائدياً (أيديولوجيًا) يوجه آلافاً من رؤوس الصواريخ التي يمكنها تدمير بلادنا في لحظة؟ قبل خمسين عامًا، عندما تسبب سباق التسلح النووي مع الاتحاد السوفيتي في تصعيد حدة التوتر في العالم، وكان المذهب الماكارثي يهدد حرياتنا في الوطن، قال الرئيس دوايت أيزنهاور لاحقًا: «كل من يتصرف على أساس أن الدفاع عن الحرية يتحقق بالقمع والريبة والخوف، فهو يقر مبدأً غريبًا على أمريكة». وقد أعلن إدوارد أر. مور، الذي هاجم السيناتور جوزيف ماكارثي صحافته الشجاعة أننا: «لن يدفعنا الخوف إلى عصر الجنون».

إنها في الواقع إهانة لمن عاشوا قبلنا، وضحوا بكثيرٍ من أجلنا، أن نُلمِّح إلى أن لدينا أمورًا أكثر مما كانت لديهم نخاف منها. فعلى الرغم مما واجهوه من أخطاء، فقد دافعوا عن حرياتنا بإخلاص، والأمر عائدٌ إلينا إذا أردنا أن نفعل مثلهم.

مع ذلك فإن هناك شيئًا يختلف اختلافًا بيّنًا اليوم. إذاً لماذا نتسم بقدر أكبر من التأثر بسياسات الخوف؟ في السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين كان هناك دومًا زعماء يرغبون في إثارة قلق الناس؛ بغية تقديم أنفسهم بوصفهم حماة الخائفين. فالزعماء الغوغائيون يُعدون دومًا بالأمن مقابل التنازل عن الحرية. فلماذا يبدو أننا نستجيب على نحو مختلف اليوم؟

إن العنصر الجديد الأشد إثارة للدهشة في الحوار القومي الأمريكي هو بروز الخوف الدائم وحدّته. إضافة إلى ذلك، فإن هناك ارتباكًا

مستمرًا وغريبًا بشأن مصادر ذلك الخوف. ويبدو أن لدينا صعوبة غير عادية في التمييز بين التهديدات الوهمية والتهديدات الحقيقية.

إنه اتهام خطر لطبيعة خطابنا السياسي الحالي، الذي جعل ثلاثة أرباع الأمريكيين من كل الفئات يصدقون بمنتهى السهولة، أن صدام حسين كان مسؤولاً بصفة شخصية عن هجمات الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، وجعل عددًا كبيرًا من الأمريكيين لا يزالون يصدقون أن معظم مختطفي الطائرات في الحادي عشر من سبتمبر كانوا عراقيين. كما أنه اتهام للأسلوب الذي تتبعه ديمقراطيتنا حاليًا، الذي جعل أكثر من 40% يقتنعون بمنتهى السهولة بأن العراق لديه بحقٍ أسلحة نووية، حتى بعدما تم الكشف عن زيف أهم دليل وهو وثائق سرية تصف محاولة نظام صدام حسين شراء خام اليورانيوم من دولة النيجر.

وبصورة واضحة، أساءت الإدارة الحالية استخدام الخوف في التعامل مع العملية السياسية، وسأعود إلى هذه القضية لاحقًا في هذا الفصل. لكنني أظن أن هناك سؤالاً آخر أشد أهمية، وهو: كيف صارت بلادنا على هذا القدر من الحساسية -وهي ليست من صفاتها المميزة- تجاه هذا الاستخدام المؤثر للخوف في تسيير سياستنا؟

يفترض أن تعمل الصحافة الحرة بوصفها الجهاز المناعي لديمقراطيتنا، ضد هذه الأخطاء الفادحة في الحقائق والإدراك. وكما قال توماس جيفرسون ذات مرة: «يمكن التسامح في خطأ في الرأي حين يُترك العقل حرًا ليصارعه». إذاً ماذا حدث؟ لماذا لم يعد جهازنا المناعي يعمل كما كان من قبل؟ لسبب واحد؛ كان هناك تحول حاد في

طبيعة ما وصفه الفيلسوف يورجن هابرماس بأنه «بنية الساحة العامة». وكما وصفت في المقدمة، لم يعد المجال العام في الواقع مفتوحًا للتبادل النشيط الحر لأفكار الأفراد، مثلما كان عند تأسيس أمريكة.

عندما لا يتم إدراك أخطاء الحقائق والأحكام، ولا يقوم الجهاز المناعي للدولة بتحييدها، يكون الوقت قد حان لدراسة المشكلة، والعمل على استرداد صحة خطابنا السياسي. ولكي يتم ذلك؛ فإننا نحتاج إلى مزيدٍ من الانتباه إلى الاكتشافات الجديدة الخاصة بالطريقة، التي يؤثر بها الخوف على عملية التفكير. وفي الواقع تتيح التطورات الحديثة في علم الأعصاب آراء جديدة ومهمة عن طبيعة الخوف.

وقد تمت في معظم سنوات القرن الماضي، دراسة المخ البشري على نحو حصري تقريبًا في سياق الحوادث والإصابات الدماغية غير المعتادة. وكان على الأطباء لحظ المنطقة المصابة في المخ، ثم بعد تأمل دقيق للسلوكيات الغريبة قد يتمكنون تدريجيًا من تحديد الوظائف التي يتحكم بها الجزء المصاب. أما الآن فقد أصبح العلماء قادرين على لحظ المخ السليم في العمليات العادية، بقياس سريان الدم وتدفقه والنشاط الكيميائي الذي يحدد أي أجزاء المخ هي الأكثر نشاطًا في وقت معين.

يمكن للتقنيات الجديدة في أي مجال أن تُحدث تأثيرًا ثوريًا. فعندما استخدم جاليليو نوعًا جديدًا وأشد قوة من التليسكوب لدراسة السماء بتفصيل أكبر، واستطاع أن يرى حركة الكواكب حول الشمس، وحركة أقمار المشتري من حوله لكي يصف بتفاصيل غاية في الإثارة،

Obeikandi.com

نموذجًا جديدًا للنظام الشمسي الذي طرحه كوبرنيكوس من قبل. إن التقنية الجديدة نفسها هي التي مكنت جاليليو من وصف واقع كان من المستحيل إدراكه بهذا الوضوح قبلها.

وبالطريقة نفسها تقريبًا، أحدثت التقنية الجديدة المسماة «تصوير الرنين المغناطيسي الوظيفي» (FMRI) ثورة في قدرة علماء الأعصاب على مشاهدة العمليات التي تتم داخل مخ الشخص الحي، ولَحظ مناطق المخ التي تستخدم في كل وقت من الأوقات استجابة لأي مثير. وكما استطاع جاليليو أن يرى فجأة أقمار المشتري، يمكن لأطباء الأعصاب الآن أن يروا للمرة الأولى العلاقات الصحيحة بين مناطق في المخ مثل الجسم اللوزي* وقُرين آمون* ومراكز الحواس*، على سبيل المثال لا الحصر.

وثمة فهم جديد بالكامل للمخ قادم في الطريق، وأحد المجالات التي كانت أشد ثراءً من حيث الاكتشافات تتعلق بكيفية تصرفنا كوننا بشر عند الخوف. وسيكون لذلك نتائج بالغة التأثير على الديمقراطية.

فالافتراض الشائع في أي ديمقراطية (وإن لم يذكر عادة) هو أن المواطنين يتصرفون بوصفهم بشرًا عقلاء، ويستخدمون عقولهم في حل المشكلات المعروضة عليهم، بافتراض أن كل مسألة يمكن حلها بأسلوب منطقي ومناقشتها دون هوى، حتى يتم الوصول إلى استنتاج

* amygdala

* hippocampus

* neocortex

جماعي قوي الحجة. لكن الأبحاث الجديدة تثبت -بطبيعة الحال- أن الأمور لا تسير هكذا على الإطلاق.

كتب أحد رواد علم الأعصاب في العالم، الطبيب فيلايانور إس. راماتشاندران يقول: «إن حياتنا العقلية يحكمها في الأساس وعاء ضخم من الانفعالات والدوافع والرغبات، التي نادرًا ما نكون على وعي بها، وإن ما نطلق عليه «حياتنا الواعية» هي عملية تبرير عقلي محكم لاحق لأمور نفعلها لأسباب أخرى في الحقيقة».

وهناك بنى عقلية أخرى تحكم المشاعر والانفعالات، ولها تأثير على صنع القرار أكبر من تأثير العقل والمنطق. إضافة إلى ذلك، فإن قوة تأثير الانفعالات على العقل أشد من تأثير العقل على الانفعالات، ولا سيما انفعال الخوف.

وقد بلغ تشارلز تابر، أحد علماء جامعة ستوني بروك، حد القول إن « نموذج العقل المتجرد من العواطف -الذي وُضع في عصر التنوير الأوروبي بوصفه واجبًا من واجبات المواطنة- هو نموذج مفلس من الناحية التجريبية».

وحسبما قال جوزيف لودو، عالم الأعصاب بجامعة نيويورك ومؤلف كتاب «المخ الانفعالي»: «إن الوصلات المتجهة من الأجهزة الانفعالية إلى الأجهزة المعرفية أقوى من الوصلات المتجهة من الأجهزة المعرفية إلى الأجهزة الانفعالية». وقدرتنا على الخوف هي جزء من تصميم المخ بوصفها إستراتيجية قديمة تمنحنا القدرة على الاستجابة بسرعة عندما تتعرض حياتنا لأي خطر. لكن ليس الخوف هو الانفعال اليقظ

الوحيد «المصمم» لتفعيل الاستجابات السريعة؛ فالجسم اللوزي على سبيل المثال، يشارك بالتأكيد في التعجيل بالاستجابات الأخرى المهمة لبقاء جنسنا البشري، مثل الرغبة في التناسل. (وربما لهذا السبب جزئيًا كان هنالك تلازم بين الإثارة الجنسية والخوف في البرمجة التلفازية الحديثة). وعلى العكس من ذلك، يتركز النشاط العقلي في أجزاء المخ التي شهدت أحدث مراحل تطور، ويعتمد على عمليات أشد دقة تمنحنا القدرة على إدراك وجود التهديدات قبل أن تقترب منا، وعلى التمييز بين التهديدات الحقيقية والتهديدات الوهمية.

ويصف أطباء الأعصاب والباحثون في المخ كيف أن الصور المزعجة تذهب مباشرة إلى أحد أجزاء المخ دون استخدام اللغة ولا التحليل المنطقي وسيطًا. وهناك في الواقع مساران متوازيان من مراكز الإبصار إلى بقية أجزاء المخ، ويعمل أحد هذين المسارين بمثابة جهاز إنذار بسيط لكنه فوري. (التطور يفرض دومًا اختيارًا بين السرعة والدقة). إضافة إلى ذلك، فإنه مهما كان سبب الخوف، يصعب إيقاف الظاهرة نفسها بعد بدئها.

قام علماء النفس بدراسة الطريقة التي نتخذ بها قراراتنا مع وجود قدر كبير من الشك والريبة؛ فوجدوا أننا ننشئ طرقًا مختصَرة –تسمى الموجّهات*– لتساعدنا على تحديد الخيارات المهمة. وأحد أهم هذه الطرق المختصرة التي نستخدمها تسمى «موجهات التأثر». إننا عادة نطلق أحكامًا فجائية قائمة في الأساس على ردود أفعالنا الانفعالية، بدلاً من التفكير في كل الخيارات بأسلوب منطقي وتحديد الخيارات بدقة.

---

* heuristics

obeikandi.com

هذا الطريق المختصر في الواقع سمة نافعة؛ فهو يتيح لنا اتخاذ القرارات على نحو أسرع، ويساعدنا على تجنب المواقف الخطرة. ولكن استخدامنا للعواطف في اتخاذ القرار يمكن أيضًا أن يعتّم على أحكامنا، فعندما يكون رد فعل انفعالي مثل الخوف قويًا بدرجة كبيرة، يمكن أن يسيطر تمامًا على عملية تفكيرنا.

إضافة إلى ذلك، فإنه كما يمكن للخوف أن يتداخل مع العقل عند وجود تهديد وشيك، فإنه يمكنه استخدام القدرة نفسها على العقل في ما يتصل بالذاكرة. فإننا نفترض خطأً أن الذاكرة هي فرع يتبع النشاط العقلي وحده، لكن في الحقيقة تلك المناطق المخية التي تعطينا القدرة على الخوف لديها دوائر ذاكرة خاصة بها. فعبر مسار حياتنا نقوم بتخزين خبرات انفعالية مؤلمة كذكريات يمكن استدعاؤها بسهولة -إما بوعي أو بغير وعي- ويمكن إعادة تذكرها مرارًا لتوجهنا في المواقف الجديدة، ولا سيما عندما يتطلب الأمر استجابة سريعة.

يعرف معظمنا ظاهرة اضطراب ما بعد الخبرة المؤلمة، الشائع لدى ضحايا الاغتصاب وضحايا التحرش الجنسي من الأطفال، والمقاتلين في الحروب، وغيرهم. فعادة عندما تتحول خبرة ما إلى ذكرى، فإنها تعطي نوعًا من «التحديد الزمني»، وهي آلية تمنحنا -عند تذكّر تلك الخبرات- القدرة على الإحساس بقدر ما مضى من زمن على وقوع هذه الأحداث التي نتذكرها وإدراكًا تقريبيًا لتتابعها الزمني. فيمكنك الإحساس بأن الخبرة المستدعاة كانت قبل كذا وبعد كذا، أو أنها كانت قبل عشرة أسابيع أو أحد عشر أسبوعًا.

لكن عندما يتم تخزين الأحداث المؤلمة -تلك التي تتضمن شعورًا بالقلق أو الألم- في الذاكرة، يختلف الأمر وتكون العواقب غير مؤكدة؛ فينشط الجسم اللوزي، ويتم تشفير تلك الذكرى وحفظها على نحو مختلف. ونتيجة لذلك، يختفي «التحديد الزمني» لدرجة أننا نشعر بأن الخبرات المؤلمة التي استدعيناها من الذاكرة لاحقًا «خبرات حاضرة». وتكون للذاكرة القدرة على تنشيط استجابة الخوف في اللحظة الحالية -حتى لو كانت الصدمة التي نتذكرها قد حدثت منذ عهد بعيد- لأن قوة الذكرى تتسبب في أن يتصرف الجزء المختص في المخ كما لو كانت الصدمة تحدث مرة أخرى في التو واللحظة. وظاهرة اضطراب ما بعد الخبرة المؤلمة هي اقتحام فوري لركن الذكريات المؤلمة، ومعايشة الأحداث نفسها مرة أخرى، كأن الواقعة قد حدثت لتوها. وكما أشار الطبيب راماتشاندران، إن هذا الانشغال بالتجربة المؤلمة هو ما يمكن أن يسبب عجزًا تامًا.

وحتى لو أدركنا على المستوى العقلي أن تلك الأحداث قد مر عليها وقت طويل، تستعيد دوائر الذاكرة النشيطة المتخصصة الموجودة في مراكز الخوف في المخ خبرة الأحداث المؤلمة عند تذكرها، وتستثير أنواع الاستجابات نفسها -مثل تسارع دقات القلب وتنامي مشاعر الخوف- التي كان سيتم استثارتها لو كانت تلك الأحداث تحدث فعلاً في هذا الوقت.

إن أوجه التشابه في بنية الخبرات السابقة والخبرات اللاحقة، يمكن أن تتسبب في أن تطلق مراكز الخوف في المخ الذكريات وتقحمها في اللحظة الحالية. وحتى لو كانت الخبرة الحالية تشبه الذكرى المؤلمة

شبهًا سطحيًا، فإنها يمكن أن تسيطر على المشاعر بقوة هائلة، ويمكنها استثارة استجابات الخوف نفسها التي أثارتها الصدمة الأصلية.

إضافة إلى ذلك، فإن إدراك مدى سطحية التشابه في بنية الخبرة بالتحليل العقلاني لا يكاد يؤثر على مركز الخوف في المخ، ونادرًا ما يبدد قوة الذكرى المخيفة. لكن مركز الخوف له تأثير عظيم على عملية التفكير، وعلى طريقة صياغة الذكريات أيضًا. ويصف الطبيب مايكل فانسيلو عالم أبحاث النفس في جامعة كاليفورنيا الأمر بقوله: «إن الدليل المتاح يوحي بأن الجسم اللوزي يعرف معلومات عن الأحداث التي تثير الخوف ويختزنها، لكنه يقوم أيضًا بتعديل عملية تخزين أنواع المعلومات الأخرى في مناطق أخرى في المخ». [التوكيد مضاف].

عندما اكتسب البشر تدريجيًا مستوًى أعلى من التفكير، فإننا اكتسبنا ميزة القدرة على توقع التهديدات الناشئة، واكتسبنا القدرة على تصور التهديدات بدلاً من إدراكها فقط. لكننا أيضًا اكتسبنا القدرة على تصور التهديدات «المتخيلة». وعندما تقتنع مجموعة من الناس بتصورهذه التهديدات المتخيلة، يمكنهم تنشيط استجابة الخوف لتصير بقوة الاستجابة نفسها للتهديدات الحقيقية.

هذه القدرة على تصور شيء ما يقوم بتنشيط الجسم اللوزي وبدء استجابة الخوف، لها أهمية خاصة بسبب ظاهرة أخرى مهمة ذات صلة وثيقة تسمى «التألم بالنيابة». فإذا مرّ شخص ما، أحد أفراد الأسرة أو شخص تربطنا به صلة قوية، بخبرة مؤلمة، فإن مشاعر هذا الشخص يمكن أن تنتقل إلينا حتى لو لم نمر بخبرة الحدث المؤلم مباشرة.

وتثبت الدراسات الحديثة، أن سرد القصص المؤلمة لمن يشعرون بهوية تربطهم بضحايا الصدمة -سواء كانت الهوية المشتركة عرقية أو دينية أو تاريخية أو ثقافية أو لغوية أو قبلية أو قومية- يمكن أن ينتج عنها فعلاً استجابات انفعالية وبدنية لدى السامع تماثل استجابات الضحايا.

وفعلاً، اكتشف علماء النفس حديثاً طائفة جديدة من الخلايا العصبية تسمى «الخلايا العصبية العاكسة»، وهي تخلق قدرة بدنية قوية على التقمص الوجداني. وقد شرح لي الدكتور راماتشاندران الأهمية الفائقة لهذا الاكتشاف الجديد:

ظل معروفًا لزمن طويل أن الخلايا العصبية في هذه المنطقة (جزء في المخ يسمى الفص الأمامي، وهو الذي يتلقى قدرًا كبيرًا من المدخلات من الجسم اللوزي) تستثار عند وخز المريض بغرض إيلامه، لذلك يطلق عليها «خلايا الإحساس بالألم» بافتراض أنها تنبه العضو إلى خطر محتمل - حتى يتجنبه. لكن باحثين في تورونتو وجدوا أن بعض هذه الخلايا في مرضى من البشر، لا تستجيب فقط عند وخز المريض بإبرة -كما هو متوقع- بل إنها كانت تستثار بالقدر نفسه أيضًا عندما يشاهد المريض مريضًا «آخر» يتم وخزه. هذه الخلايا العصبية (الخلايا العصبية العاكسة) تزيل الحدود بين «الذات» والآخرين، وتبين أن مخنا فعلاً «مصمم» للتعاطف الوجداني والشفقة، ولحظ أننا لا نستخدم المجاز في هذا القول، فهذه الخلايا العصبية التي نتكلم عنها لا يمكنها في الحقيقة أن تخبرنا إذا ما كان الشخص يُنخز أم لا. فكأن الخلايا العصبية العاكسة تقوم بمحاكاة فعلية لحقيقة ما يجري

obeikandi.com

في عقل الشخص الآخر. وبذلك تقريبًا ينشأ «الشعور» بألم الآخر (وأنا أسميها خلايا الدلاي لاما)*.

لقد اكتشف المعالجون هذه الظاهرة القوية -أي «التألم بالنيابة»- أولاً وقبل وقت طويل من اكتشاف الخلايا العصبية العاكسة التي تفسر كيفية عملها. وتقدم الطبيبتان أي. ليزا ماكان ولوري آن بيرلمان التعريف الأصلي للتألم بالنيابة وهو: «النتائج النفسية المستمرة التي يشعر بها المعالجون بسبب تعرضهم لخبرة مرضاهم المؤلمة؛ فالأشخاص الذين يعملون مع الضحايا قد يتعرضون لمؤثرات نفسية عميقة، وهي مؤثرات قد تكون ممزِّقة ومعذبة للمعالج، ويظل أثرها طوال شهور وربما طوال سنوات بعد عملهم مع الأشخاص أصحاب الخبرة المؤلمة».

تنتقل قصص الخبرات المؤلمة والمآسي في العالم كله من جيل إلى جيل. وقبل أن يضيف التلفاز بعدًا جديدًا وقوة لقدرة الحكاة على استثارة الاستجابات الانفعالية بزمن طويل، كان الوصف اللفظي الحي للخبرات المؤلمة التي عاناها آخرون، تثير ردود أفعال قوية - ولو بعد قرون من وقوع الحوادث الأصلية.

في أوائل صيف عام 2001، ذهبت مع تيبر إلى اليونان، وفي أثناء وجودنا هناك قام البابا بزيارة تاريخية إلى اليونان، فاستقبله آلاف المتظاهرين الغاضبين يحملون لافتات ويرددون هتافات. نظرت إلى ما يجري، لقد كانوا غاضبين بسبب واقعة جرت قبل ثمان مئة سنة:

* الدلاي لاما Dalai Lama لقب الزعيم الروحي لمذهب اللامية، وهو فرع من البوذية ينتشر في التبت ومنغوليا. (المترجمة)

إذ كانت الحملة الصليبية الرابعة قد توقفت في القسطنطينية، ونهبت المدينة وأضعفتها فلم تستطع مقاومة اجتياح الأتراك لها بعد ذلك، وهم غاضبون اليوم بعد مرور ثمان مئة عام على هذا الحدث.

ولنأخذ مثالاً آخر، ذهب سلوبودان ميلوسوفيتش، أوائل صيف عام 1989 إلى سهول كوسوفو، في الذكرى الست مئة للمعركة التي هُزمت فيها الإمبراطورية الصربية في أوج مجدها. وقال المتحدث الرسمي للحكومة إن مليونًا ونصف المليون شخص ذهبوا إلى هناك. أما التقديرات الغربية فذكرت أنهم كانوا مليون شخص، غطوا جوانب التلال ومنحدراتها للاستماع إلى خطابه. وقد أحيا ميلوسوفيتش المعركة التي دارت قبل ست مئة عام في خطابه. وفي أعقاب هذه الاستعادة الجماعية للخبرة المؤلمة مباشرة، بدأت حملة شرسة من الترحيل العنيف للكروات والبوسنيين وسكان كوسوفو -على الأقل جزئيًا- بسبب وجود خبرة بالنيابة لحدث مؤلم جرى قبل ستة قرون، نشطت في أجساد الأفراد الموجودين حاليًا -في هذا الجيل- استجابة وكأنهم قد أحيوا ذلك الخوف الذي مر عليه هذا الزمن الطويل.

وإذا نظرنا إلى الصراعات في شبه القارة الهندية وفي سريلانكة وإفريقية وأيرلندة الشمالية والشرق الأوسط -وفي الحقيقة، في كل منطقة صراع في العالم بأسره- سنجد عنصرًا من عناصر سياسات الجسم اللوزي القائمة على التألم بالنيابة، والذكريات التي تتغذى على المآسي القديمة. وفي كل حالة من هذه الحالات، كانت هناك عملية سياسية تحاول حل هذه الصراعات عبر خطاب متعقل. لكن

هذه الاستجابة لا تكفي لتفتيت القوة الثابتة للذكريات المؤلمة التي يتم إحياؤها وإيقاظها. إننا بحاجة لآليات جديدة، مثل لجنة الصدق والمصالحة في جنوب إفريقية -أو آليات لم تخترع بعد- للتعامل مع دور الذكرى المؤلمة الجماعية بالنيابة في توجيه الصراعات الطويلة.

إننا نحكي القصص في ثقافتنا الحالية عبر التلفاز أساسًا، وكما ذكرت، مر أربعون عامًا منذ أن اتخذ أغلب الأمريكيين التلفاز مصدرًا أساسيًا للمعلومات لهم. وكما رأينا، أصبحت هيمنته شاملة وواسعة النطاق، لدرجة أن المواطن الأمريكي العادي -رجلاً كان أو امرأة- يقضي ثلثي «وقته الحر» (ما تبقى من وقت بعد العمل والنوم والانتقالات) في مشاهدة التلفاز. وفعلاً تحدث كل الاتصالات السياسية المهمة حاليًا داخل حدود إعلانات التلفاز الخاطفة التي تستغرق ثلاثين ثانية.

وتبرهن الأبحاث على أن التلفاز يمكن أن يسبب «تألمًا بالنيابة» لملايين الناس. وقد أظهرت نتائج مسح ما بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر أن من كانوا يشاهدون التلفاز بصفة متكررة، أظهروا أعراضًا للتألم أكثر ممن يشاهدون التلفاز بقدر أقل. وقد قال أحد المحللين في هذه الدراسة عمّن أُجري عليهم المسح واصفًا ردود أفعالهم على أحداث 9/11: «إن من كانوا يشاهدون التلفاز أكثر عبّروا عن قدر أكبر من الضغط النفسي».

إن الآثار البدنية الناتجة عن مشاهدة أحداث مؤلمة على شاشة التلفاز -كارتفاع ضغط الدم وزيادة معدل ضربات القلب- هي نفسها ما يشعر به الذي مرّ بخبرة الحدث المؤلم مباشرة. إضافة إلى ذلك،

فقد ثبت أن التلفاز يمكنه خلق ذكريات زائفة، لها قوة الذكريات العادية نفسها، وعند استعادتها يكون للذكريات التي خلقها التلفاز سيطرة الذكريات الحقيقية نفسها على المنظومة الانفعالية.

ويمكن توقع نتائج ذلك، فمن يشاهدون أخبار التلفاز بصورة منتظمة لديهم انطباع أن المدن، التي يعيشون فيها أشد خطورة مما هي عليه إلى حد بعيد. وقد وجد الباحثون أيضًا أنه حتى عندما تُظهر الإحصائيات أن معدلات جرائم معينة تظهر انخفاضًا ثابتًا فعلاً، فإن قياس معدل الخوف من تلك الجرائم نفسها يرتفع كلما زاد عرض التلفاز لتلك الجرائم. وعادة ما يزداد عرض الجريمة؛ لأن مستشاري أصحاب المحطة التلفازية ينصحون عملاءهم بأن معدلات المشاهدة تزداد حينما تتصدر الجرائم العنيفة نشرات الأخبار. وقد أعادت هذه الظاهرة صياغة النشرات الإخبارية المحلية.

إن كثيراً من برامج الصباح القومية حاليًا تتصدرها مشاهد الجريمة والقتل، ونظل نشاهدها طوال ساعات، لأنها بالغة الإثارة؛ فالصورة على شاشة التلفاز يمكن أن تنشّط أجزاء المخ ذات الصلة بالانفعالات، بطريقة لا يمكن أن تقوم بها القراءة في الموضوع نفسه.

ولقدرة التلفاز على إثارة استجابة الخوف أهمية خاصة، لأن الأمريكيين يقضون جزءًا كبيرًا من حياتهم في مشاهدة التلفاز، وثمة تفسير مهم لسبب قضائنا وقتًا طويلاً بلا حراك أمام الشاشة، وهو أن التلفاز يثير «استجابة التوجيه» في مِخاخنا.

obeikandi.com

والهدف من استجابة التوجيه -كما ذكرت في المقدمة- هو التقرير الفوري في اللحظة الراهنة عن كون الخوف مناسبًا، عن طريق تحديد ما إذا كانت الحركة المفاجئة التي جذبت الانتباه دليلاً على تهديد حقيقي أم لا. (كذلك تقوم استجابة التوجيه بتركيز الانتباه فورًا على فريسة محتملة، أو على أفراد من الجنس الآخر). فعندما تكون ثمة حركة مفاجئة في مجال رؤيتنا يتم إرسال رسالة من مكان ما في أعماق المخ الواعي تقول: «انتبه» فننتبه. وعندما رأى أجدادنا أوراق الأشجار تتحرك، كانت استجابتهم الانفعالية تختلف عن استجابة الخوف وأشد دقة منها، وربما يمكن وصفها بأنها «إنذار خطر! انتبه!»

وحاليًا، تقوم إعلانات التلفاز، وكثير من سلاسل الأحداث التي تعرض على شاشة التلفاز، على نحو متكرر، بتنشيط هذا الانعكاس التوجيهي مرة كل ثانية. وما دمنا في هذا البلد نشاهد التلفاز لمدة تزيد عن أربع ساعات ونصف الساعة يوميًا في المتوسط، فإنه يتم تنشيط تلك الدوائر في المخ بصفة مستمرة.

إن الاستثارة المتواصلة والمتكررة لاستجابة التوجيه تسبب حالة تشبه التنويم المغناطيسي؛ فهي تشل حركة المشاهدين جزئيًا، وتخلق إدمانًا للاستثارة الدائمة لمنطقتين من مناطق المخ: الجسم اللوزي وقُرين آمون (وهو جزء من ذاكرة المخ ومنظومة صياغة المفاهيم)، ويبدو الأمر كأن لدينا «جهاز استقبال» للتلفاز في مخاخنا.

عندما كنت صبيًا عشت في مزرعة أسرتنا في إجازات الصيف، وتعلمت كيف أُنوّم الدجاج مغناطيسيًا. إنك تمسك بالدجاجة ثم تلف

obeikandl.com

أصبعك على شكل دائرة حول رأسها مع التأكد من أن عينيها تتابعان حركة يدك. وبعد عدد كافٍ من هذه الدوائر ستصير الدجاجة مسلوبة الإرادة وتُشل حركتها تمامًا. وهناك كثير مما تستطيع عمله بدجاجة منوّمة مغناطيسيًا؛ إذ يمكنك استخدامها مُثقِّلة للأوراق، أو مصدًا للباب، وفي كل الحالات ستبقى الدجاجة دون حراك تحدق ببلاهة. (الشيء الوحيد الذي لا يمكنك استخدام هذه الدجاجة فيه هو جعلها كرة قدم؛ لأن استخدامها كشيء يرمى في الهواء قد يوقظها على الفور).

وقد ثبت أن استجابة الجمود (عدم الحركة) في الحيوانات مجال حاز قدرًا من اهتمام العلماء. وإليك أحد الأمور التي اكتشفها العلماء: تتأثر استجابة الجمود إلى درجة كبيرة بالخوف؛ فمثير الخوف يجعل الجسم اللوزي للدجاجة يعطي إشارة لإفراز مواد كيميائية عصبية، وتُظهر التجارب المعملية أنها تزيد من احتمال حدوث استجابة الجمود.

وأنا لا أقول أن مشاهدي التلفاز يشبهون الدجاج المنوِّم مغناطيسيًا ،لكن قد تكون هناك بعض الدروس نتخذها نحن البشر - أصحاب المخاخ الأكبر- من خبرات دجاج المزرعة. أذكر أنني في صباي كنت أقضي الساعات أمام التلفاز دون أن ألْحظ قدر ما مضى من وقت. وتؤكد تجربتي الشخصية بأن المشاهدة الطويلة للتلفاز يمكن أن تتسبب في تخدير العقل أو إفقاده الحس.

وهذا أحد الأسباب التي تجعلني أشعر بحماس شديد لربط الإعلام التلفازي بالإنترنت وفتحه لإبداع الأفراد ومواهبهم. وأعتقد أن منح اهتمام أكبر لنوعية البث التلفازي التي يقوم بها المواطنون، ولنزاهتها

مسألة في غاية الأهمية. وهذا أيضًا أحد الأسباب التي جعلتني متخوفًا من احتمال أن يقوم هؤلاء، الذين يسعون لاستخدام الإعلام التلفازي بالتأثير على الرأي العام؛ وذلك باستثمار هذا الوسط بأساليب تتجاهل العقل والمنطق.

إن تأثير التلفاز الذي يشبه التنويم المغناطيسي، هو أحد أسباب كون الاقتصاد السياسي الذي تدعمه صناعة التلفاز يختلف عن السياسات النشيطة في أمريكة في قرنها الأول، بالقدر نفسه اختلاف تلك السياسات عن نظام الإقطاع، الذي ازدهر بسبب جهل جموع الناس في العصور المظلمة.

ويمكن أن يستثمر مختصو العلاقات العامة البارعون والعاملون في مجال الإعلام، ورجال السياسة تعرضنا المنتظم للخوف وغيره من ألوان الاستثارة الناشئة عن التلفاز؛ إذ يرى باري جلاسنر -أستاذ علم الاجتماع في جامعة جنوب كاليفورنية- أن هناك ثلاثة أساليب تكوّن معًا «المتاجرة بالخوف» وهي: التكرار، وجعل غير المألوف مألوفًا، والتضليل. وباستخدام هذه الأدوات القصصية يمكن لأي شخص لديه منبر مسموع أن يزيد قلق الناس ومخاوفهم؛ وذلك عن طريق تشويه الخطاب والعقل العام.

من المؤكد أن هناك أمثلة تاريخية عديدة على استخدام الصورة الحية التي تؤدي إلى تألم بالنيابة استخدامًا إيجابيًا. فصور تهديد متظاهري الحقوق المدنية بالكلاب الشرسة، والتعامل معهم بوحشية بخراطيم الحريق، ساعد على تعبئة عامة الأمريكيين ليدخلوا ضمن

obeikandi.com

حركة كبرى تطالب بالعدالة الاجتماعية. وتعلمت من خبرتي الشخصية أن الصور المرئية -اللوحات والصور والرسوم المتحركة والنماذج المعدة بالحاسب الآلي- توصل المعلومات عن الأزمات المناخية بمستوى أعمق مما تنقله الكلمات وحدها. وبالمثل، فإن الصور الرهيبة التي وصلت إلينا من كل من حرب فيتنام وحرب العراق، ساعدت على تسهيل التحولات في الشعور العام ضد الحروب الفاشلة التي يجب وضع حد لها.

وحتى مع قيام العقل والمنطق بأدوار بارزة في الوسائل المطبوعة، يمكن استخدامهما مع الصور للحصول على تأثير قوي وإيجابي في الإعلام التلفازي. وفي الواقع، ثمة أهمية لصور المعاناة المرئية تحديدًا؛ لأنها يمكن أن تساعد على توليد التعاطف والنوايا الصادقة. فقد نقلت الصور الرهيبة من داخل سجن «أبو غريب» جوهر الفعل الشائن هناك بقوة أكبر من أي كلمات. ومع ذلك فإنه، عندما يتم التأثير على هذه المشاعر القوية، فلا بد من الحذر من احتمال إساءة استخدامها.

ومما تؤكده الدراسات أن البشر يخافون بصفة خاصة من الأخطار التي يمكن تصويرها أو تخيلها بسهولة، وعلى سبيل المثال، فقد توصلت إحدى الدراسات إلى أن الناس يرغبون في دفع مبالغ في تأمين رحلات الطيران التي تغطي «الوفاة الناتجة عن أعمال إرهابية» أكبر مما يدفعون في تأمين رحلات الطيران التي تغطي «الوفاة لأي سبب». وحاليًا، وبرغم أنه من الطبيعي أن يغطي تأمين الطيران الوفاة بسبب الإرهاب بالإضافة إلى عدد من المشكلات الأخرى المحتملة مع الوفاة لأي سبب.. لكن ثمة شيئًا ما يتعلق بالكلمة الطنانة «الإرهاب» يخلق انطباعًا حيًا يتولد عنه خوف مفرط.

obeikandi.com

يلقي مثال تأمين رحلات الطيران الضوء على ظاهرة نفسية أخرى مهمة، لفهم أثر الخوف على تفكيرنا، وهي«إهمال الاحتمال» فقد وجد علماء الاجتماع أنه عندما يواجه الناس تهديدًا هائلاً ومكافأة ضخمة، فإنهم يميلون للتركيز على ضخامة النتيجة، ويتناسون أنه احتمال فقط.

فكر كيف استخدمت إدارة بوش بعض الأساليب التي ذكرها السيد جلاسنر: كالحديث عن التهديد نفسه مرارًا وتكرارًا، والتضليل (من تنظيم القاعدة إلى صدام حسين) واستخدام التصوير الحي («سحابة تشبه الفطر فوق مدينة أمريكية») .

كان للحادي عشر من سبتمبر أثر عميق علينا جميعًا. لكن بعد الرد المبدئي بطريقة مناسبة تمامًا، بدأت الإدارة في تعميق الخوف العام من الإرهاب وتحريفه لخلق ذريعة سياسية للهجوم على العراق. وبرغم غياب الأدلة، قيل إن العراق تتعاون تعاونًا وثيقًا مع تنظيم القاعدة، وإنها على وشك تطوير أسلحة نووية. وتم دمج إيقاع الهزيمة بصدام بالحرب على الإرهابيين، برغم أن المقصود بذلك في الحقيقة كان تحويل انتباهنا ومواردنا عن أولئك الذين هاجمونا فعلياً.

عندما وقف رئيس الولايات المتحدة أمام شعب هذه الأمة ودعانا «لتخيل» هجمة إرهابية بسلاح نووي، كان يشير إلى إرهابيين لا علاقة لهم بالعراق فعلاً. لكن لأن بلادنا كانت هدفًا لأحداث 11 /9 الرهيبة، عندما قال رئيسنا: «تخيلوا معي هذا الخطر الجديد»، كان من السهل إلى أبعد الحدود تجاوز عملية التفكير التي قد تؤدي بالناس في ظروف أخرى، إلى أن يسألوا: «انتظر سيدي الرئيس، ما دليلك على ذلك؟»

حتى إذا صدقنا أن العراق كان يمثل تهديدًا لنا، فإنني آمل أن تتفق معي على أن نقاشًا مفصلاً دقيقًا بشأن الحكمة من غزو تلك الدولة، لا شك أنه كان سيفيد أمتنا. ولو كنا وازنّا بين الفوائد المحتملة للغزو وبين مخاطره المحتملة، فربما كنا منعنا بعض الأحداث المأساوية التي تكشفت حاليًا هناك.

يعتمد الإرهاب على إثارة الخوف لتحقيق مآرب سياسية، والحقيقة أن هدفه المحدد هو تحريف الواقع السياسي لدولة ما، بخلق خوفٍ لدى عموم الناس، وهو لا يتناسب في ضخامته مع الخطر الفعلي الذي يمكن أن يمثله الإرهابيون. والمفارقة أن استجابة الرئيس بوش لهجمات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية كانت -في الحقيقة- لتحريف الواقع السياسي لأمريكة، عن طريق خلق خوف جديد من العراق لا يتناسب في ضخامته مع الخطر الفعلي الذي يمكن للعراق أن يمثله. وهذا أحد أسباب ما حدث من انزعاج شديد لعدد كبير من الناس عام 2004، عندما قدم الخبير العسكري الذي يتمتع باحترام بالغ، ديفيد كاي، تحقيقًا شاملاً مطولاً عن زعم الإدارة بأن العراق يمثل تهديدًا هائلاً؛ لأن لديه أسلحة دمار شامل، تحت عنوان «كنا جميعًا مخطئين».

نعرف الآن، ودون شك، أنه لم تكن هناك أي صلة مطلقاً بين أسامة بن لادن وصدام حسين. وبرغم هذه الحقيقة، قال الرئيس بوش -فعلاً- للأمة وقت الارتفاع الشديد في الحساسية تجاه الخوف من الهجمات: «لا يمكنكم الفصل بينهما».

ولسوف يحكم التاريخ بالتأكيد على قرار أمريكة بغزو واحتلال دولة هشة وغير مستقرة لم تهاجمنا، ولم تكن تمثل لنا أي تهديد، بأنه لم يكن قرارًا مأساويًا فحسب؛ بل ومنافيًا للعقل أيضًا. فمن المؤكد أن صدام حسين كان ديكتاتورًا قاسيًا، لكنه لم يكن ذلك الشخص الذي يمثل تهديدًا مسلّطًا فوق رؤوسنا، وهذا قرار لم يكن ليتخذ إلا في لحظة من الزمن، تقلّص فيها دور العقل في التشاور القومي تقلصًا شديدًا.

كان توماس جيفرسون يدرك الصلة بين المأساة العبثية وغياب العقل؛ فقد كتب لجيمس سميث عام 1822 يقول: «ما أن يتنازل الإنسان عن عقله، لا يتبقى له أي حارس يحميه من الأمور العبثية الرهيبة، مثلما تكون السفينة بلا دفة تتقاذفها الرياح».

وقد تحدثتُ في المؤتمر الديمقراطي في ولاية أيوا في خريف عام 2001. وكنت قد أعددت في شهر أغسطس قبل المؤتمر خطابًا مختلفًا تمامًا، لكن في أعقاب مأساة 9/11، وقفت بفخر وبصدق تام، أمام الديمقراطيين في أيوا وقلت: «إن جورج دبليو بوش رئيسي، وسوف أتبعه، كما سنفعل جميعًا، في وقت الأزمة». كنت واحدًا من ملايين يشعرون بهذا الشعور نفسه، وأعطيت الرئيس كامل ثقتي طالبًا منه أن يقودنا بحكمة واقتدار. لكنه أعاد توجيه بؤرة انتقام أمريكة نحو العراق، ذلك البلد الذي لا علاقة له من أي نوع بأحداث الحادي عشر من سبتمبر.

تم اختيار توقيت حملة الخوف، التي كانت تهدف إلى تسويق حرب العراق، بدقة لتتزامن مع بداية انتخابات التجديد النصفي عام 2002.

وقد وصف رئيس الأركان آنذاك اختيار التوقيت بأنه قرار تسويقي، وقال أندرو كارد: «لقد تم تحديده لدعاية في مدة ما بعد عيد العمال؛ لأن هذا هو وقت البداية المعتادة لحملات الدعاية «للمنتجات الجديدة»، حسب قوله. وما يوحي به كلامه المجازي هو أن المنتج القديم -الحرب على أسامة بن لادن- فقد بعض تأثيره، وعند البدء المباشر لحملة انتخابات 2002، تم تدشين منتج جديد - الحرب على العراق. فهناك لكل شيء موسم ولا سيما سياسات الخوف.

لقد خاض الرئيس الحرب على الإرهابيين لفظيًا في كل خطاب من خطبه حملته تقريبًا، وفي كل عشاء أقامه لحزبه لجمع التبرعات؛ فقد كان هذا هو موضوعه السياسي الأساسي. أما المرشحون الديمقراطيون، أمثال السيناتور ماكس كليلاند في جورجيا، وهو ممن حاربوا في فيتنام وبُترات ثلاثة أعضاء من جسمه، فكانوا يُعَدّون غير وطنيين لأنهم صوتوا ضد طلبات البيت الأبيض الغامضة بشأن تعديل مشروع قانون أمن التراب الوطني.

فقد قام الزعيم الجمهوري السابق في مجلس النواب، طوم ديلاي، بجمع عدد أكبر من مقاعد الكونجرس في تكساس، بغرض إعادة توزيع غير معتاد لأصوات الأحياء في مجلس في الولاية، حتى إنه استطاع تعقب أعضاء الهيئة التشريعية -الذين هجروا الولاية للحيلولة دون استكمال النصاب، ومن ثم منع التصويت- عن طريق طلب المعونة من إدارة الأمن القومي الجديدة للرئيس بوش. وقد عكف ثلاثة عشر موظفًا من إدارة الطيران الفيدرالية على البحث لمدة ثماني ساعات، بمصاحبة

واحد على الأقل من ممثلي مكتب التحقيقات الفيدرالي (برغم أن عددًا كبيرًا من ممثلي الوكالة، الذين طُلب منهم العون رفضوا المشاركة في هذا العمل). وقد وجهت لجنة أخلاقيات البيت الأبيض اللوم إلى ديلاي، إلا أنه رفض الاعتراف بأي خطأ.

وعن طريق تحديد أماكن الديمقراطيين بسرعة باستخدام الوسائل التقنية بغرض تعقب الإرهابيين، صار الجمهوريون قادرين على النجاح في تركيز الضغط العام على أضعف أعضاء مجلس الشيوخ، ومرروا بالقوة خطة توزيع أصوات المقاطعات السياسية الجديدة. وبعد توجيه الشكر جزئيًا لجهود ثلاث وكالات فيدرالية مختلفة، استطاع بوش وديلاي الاحتفال بالحصول على سبعة مقاعد جمهورية جديدة في الكونجرس.

إن هذا الجهد الدائب لتسييس الحرب في العراق والحرب على الإرهاب لمصلحة الموالين، يضر ضررًا بالغًا باحتمالات دعم اتفاق المترددين بين الحزبين على سياسات أمن الدولة. وعلى النقيض تمامًا كان التوجه المختلف الذي اتخذه رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل أثناء أيام عصيبة في أكتوبر 1943، عندما واجه -في ذروة الحرب العالمية الثانية- جدالاً بشأن احتمال تقسيم ائتلاف حزبيه، قال:

> إن ما أبقانا على الائتلاف هو متابعة الحرب... ولم يُطلب من... أي امرئ أن يتخلى عن قناعاته؛ إذ سيكون ذلك أمرًا خاطئًا وغير لائق؛ فوجودنا معًا له سبب خارجي يجذب اهتمامنا. فالمبدأ الذي نسير وفقًا له هو «كل شيء للحرب

سواءً أكان خلافيًا أم لا، ولا شيء خلافي إلا وكان حقيقيًا بالنسبة للحرب». ذلك هو وضعنا. ولا بد أن نحذر اتخاذ الحرب ذريعة دون ضرورة لإحداث تغييرات اجتماعية أو سياسية عميقة استغلالاً للظرف الراهن.

إن ما حذر منه تشرشل هو بالضبط ما حاولت إدارة بوش أن تفعله، أي استخدام الحرب على الإرهاب من أجل مصلحة حزبية، وإجراء تغييرات مؤثرة في السياسة الاجتماعية من أجل تعزيز نفوذها السياسي.

وفي قضايا أخرى عديدة أيضًا، صار واضحًا الآن أن إدارة بوش قد لجأت إلى لغة الخوف وسياساته، من أجل اختزال النقاش، ودفع جدول الأعمال العام بغض النظر عن الأدلة والحقائق والمصلحة العامة. وكما سأتناول بالمناقشة في الفصل الخامس، لم تتردد الإدارة في استخدام الخوف من الإرهاب للهجوم على معايير ظلت باقية لجيل كامل، لمنع تكرار إساءة استعمال السلطة الذي مارسه كل من مكتب التحقيقات الفيدرالي وجماعة الاستخبارات في الحرب الباردة. كذلك فقد ألهى الخوف من الإرهاب الأمريكيين عمدًا عن القضايا الداخلية المزعجة، مثل القضايا الاقتصادية التي بدأت بإزعاج البيت الأبيض إلى درجة خطرة في صيف عام 2002.

وبدلاً من أن تقود هذه الإدارة الأمة إلى مواجهة الخطر بشجاعة، حكمت الناس ببث الخوف فيهم. وفي حملة انتخابات 2006، كان بوش أكثر صراحة في قوله: «إذا فاز الديمقراطيون، فاز الإرهابيون».

هناك بالتأكيد خوف مشروع، وطريقة مشروعة ومسؤولة لتوجيهه. لكن الخوف من الموت يثيرنا أكثر من أي شيء آخر. كما أن استخدام المستندات المزورة والمناقشات الزائفة لتوليد هذا النوع من الذعر، عن طريق إقناع الأمريكيين بأن الإرهابيين سيفجرون قنابل نووية في المدن التي يعيشون فيها، يدل على انعدام الضمير.

وعندما ترتبط حياة الإنسان باستحضار الخوف، يكون لذلك الخوف بعد نوعي مختلف؛ فينبغي أن يتكلم الناس عن كل أنواع الخوف، ويمكن أن يكون هذا الكلام بطريقة مسؤولة، إذا كانت أنواع الخوف هذه حقيقية، وإذا كانت طريقة تناوله تتسم بالأمانة. لكن خلق مخاوف زائفة عمدًا؛ لأغراض سياسية، أمر يضر بديمقراطيتنا.

ومن المؤكد أن استخدام الخوف أداةً سياسية، ليس جديدًا؛ فالتاريخ الأمريكي حافل بالأمثلة، ولنذكر مثالين فقط هما: «**لا تنسوا مين**»* و«**قرار تونكين**»* وأنا أتذكر شخصيًا الطريقة التي استخدم بها الرئيس ريتشارد نيكسون الترهيب من جرائم العنف في انتخابات مدة رئاسته الثانية عام 1970.

* مين هي سفينة حربية أمريكية ضخمة تم تفجيرها في ميناء هافانا في كوبة عام 1898. (المترجمة)

* هو موافقة الكونجرس عام 1964 على التدخل العسكري في جنوب شرق آسية، و«تونكين» هو اسم خليج في فيتنام الشمالية، للدفاع عن حلفاء الولايات المتحدة، وقد استخدم الرئيسان جونسون ونيكسون هذا القرار لاحقًا لتسويغ التدخل العسكري في جنوب شرق آسية. (المترجمة)

كانت تلك حملة رأيت أحداثها مباشرة؛ فقد افتروا على والدي، الذي كان أشجع من عرفت من الساسة، باتهامه بأنه غير وطني بسبب معارضته حرب فيتنام، واتهم بأنه ملحد؛ لأنه عارض تعديل دستوري يقضي بإقامة صلاة تحت رعاية الحكومة في المدارس الحكومية.

كنت في الجيش في ذلك الوقت، متوجهًا إلى فيتنام، بمهمة مراسل حربي في كتيبة هندسية، وكنت في إجازة في أسبوع الانتخابات نفسه. وكانت القضايا الكبرى الأخرى في ذلك العام هي القانون والنظام، والتجمهر بحكم المحكمة، وحملة الترهيب من جرائم العنف. كانت حملة لا أخلاقية نظمها نيكسون، أحد الذين يعدّهم المؤرخون السياسيون حاليًا حدًا فاصلاً يشير إلى انحدار حاد في نغمة خطابنا القومي.

يذكرني جورج دبليو بوش، في جوانب عديدة، بنيكسون أكثر من أي رئيس آخر. فقد أخضع نيكسون -مثل بوش- فعلاً كل المبادئ لنهمه لإعادة الانتخاب، وأعطى ضوابط الأجور والأسعار اهتمامًا أقل برغم مبادئه المحافظة، مثلما أظهر الرئيس بوش في تكديس ترليونات الدولارات من الديون.

فبعد حظر النفط عام 1973، هدد نيكسون سرًا بغزو حقول النفط في الشرق الأوسط عسكريًا، وكذلك فعل بوش اليوم، مع الإبقاء على نواياه سرًا. وبعد خروج نيكسون من الحكم في خزي، أسرّ إلى أحد محاوريه الدائمين: «إن الناس يتأثرون بالخوف لا بالحب، وهم لا يُدرّسون ذلك في مدارس الأحد، لكنها الحقيقة».

وفي حديث للتلفاز الوطني عشية انتخابات عام 1970، قال السيناتور إد موسكي متحدثًا عن الخيار الحقيقي الذي يواجهه الناخبون: «ليس هناك سوى نوعين من السياسات، ليست ثورية ورجعية أو محافظة وتحررية ولا حتى «ديمقراطية» و«جمهورية»؛ وإنما هناك سياسة الخوف وسياسة الثقة. وإن بعضهم ليقولون: إنكم محاطون بمخاطر بشعة، امنحونا السلطة على حريتكم لنحميكم، ويقول الآخرون: إن العالم محير وينطوي على مخاطر، لكن يمكن تشكيله وفقًا لرغبة البشر». ثم اختتم حديثه بقوله: «أعط صوتك للثقة في التقاليد القديمة لبيت الحرية هذا».

في اليوم اللاحق، هُزم والدي – هزمته سياسات الخوف. لكن شجاعته في الدفاع عن المبدأ، جعلتني شديد الفخر، وألهبت حماسي، وشعرت بحق إنه فاز بشيء أهم كثيرًا من الانتخابات. ففي خطبته في تلك الليلة، قلب والدي شعار دعاة الفصل العنصري القديم، إذ وعد بجرأة بأن: «الحق سينهض ثانية». ولم أكن الشخص الوحيد الذي سمع ذلك الوعد، ولم أكن أيضاً الوحيد الذي لا يزال ذلك الأمل يبدو له ملحًا وحقيقيًا.

لكن قبل أن يمكن تحقيق هذا الأمل، نحتاج إلى فهم معاني ظهور الخوف المقيم من جديد في ديمقراطيتنا، وسأتحرى في الفصل القادم، لماذا يكون العامة أقرب إلى نبذ العقل، واتباع الزعماء الذين يظهرون إيمانًا متعصبًا بالرؤى الأيديولوجية. إن حكام الغوغائية الجدد لا

يوفرون فعليًا أمنًا أكثر من الأخطار، لكن آراءهم وعباراتهم الساذجة اللاذعة المتكررة يمكن أن توفر الارتياح لمجتمع خائف.

ولسوء الحظ، لم يسهم ظهور هؤلاء القادة إلا في تفاقم تدهور العقل وتعريض ديمقراطيتنا للخطر.

obeikandl.com